تمثيلات التراث الصحراوي الأمازيغي في قصة اللسان لإبراهيم الكوني

أ.طارق بوحالة
أستاذ مساعد صنف"أ"
المركز الجامعي عبد الحفيظ بوالصوف–ميلة

مُلخّص البحث

[تسعى مداخلتنا إلى تسليط الضوء على أبرز تمثيلات وصور التراث الصحراوي والتارقي، داخل متن قصصي ليبي للروائي والقاص المشهور: إبراهيم الكوني، حيث تم التركيز على مظاهر هذا التراث وعلاقتها بحياة بطل القصة. الذي سماه الكوني بالنبيل.]

تمهيد:

يعد مفهوم التراث من المفاهيم الأكثر انتشارا في الدراسات الفكرية والنقدية والثقافية العربية، خاصة في علاقاته مع مفاهيم أخرى لعل أبرزها: الحداثة والعولمة.

كما أن لمفهوم التراث خصوصية تجعل منه مختلفا عن مفاهيم التاريخ والموروث وغيرها، وانطلاقا من أهمية التراث في تشكيل الوعي بالعالم من حولنا، كونه–التراث– موجودا فينا بالقوة، إذ لا وجود لحياة حاضرة ولا لمستقبل دون وجود لتراث، يتمظهر في حياة الإنسان بأشكال عديدة ومختلفة.

لهذا كان حضوره بارزا وأساسيا في الأعمال الفنية والأدبية والتمثيلية المختلفة، كمصدر مهم في صياغة نصوصها وتحميلها بمضامين ورؤى مبدعيها.

ولما كانت القصة القصيرة جنسا أدبيا عالميا بامتياز، فإن ذلك فتح الباب واسعا أمام كتابها للرجوع إلى التراث والنهل منه بغية تشكيل معالمها البنائية والفنية والأسلوبية والثقافية والرمزية.

انطلاقا من هذه الإطلالة فقد حاولت مداخلتنا أن تتوجه إلى نص عربي ينتمي إلى هذا الجنس الأدبي، وهي القصة الموسومة بـ "اللسان" للقاص والروائي الليبي "إبراهيم الكوني". محاولة الكشف عن أبرز تمثيلات التراث الصحراوي التارقي فيها.

والبحث في هذه التمثيلات يستدعي منا اللجوء إلى بعض مقولات القراءة الثقافية والأنتربولوجية بغية الكشف عن ملامح التوظيف التراثي. الأمر الذي دفع بنا إلى العودة إلى تقديم مفاهيم نظرية ترتبط بمقولتي التمثيل والتراث والحداثة وغيرها.

1-مفهوم التمثيل:

يعود استعمال مفهوم التمثيل إلى مجالات مختلفة أبرزها: السياسة وبالضبط مجال "التمثيل البرلماني"، أي عندما يقوم جماعة من الناس باختيار من يمثلهم في المجالس النيابية، بعبارة أخرى من ينوب عنهم ويتكلم باسمهم أمام الجهات البرلمانية. لهذا فالتمثيل قد يتمظهر عبر جملة من الأشكال قد تكون بالكلام أو بالحضور أو بالكتابة.

أما في مجال الدراسات المعرفية فالتمثيل عبارة عن "ضرب من العمليات التي تدور حول طريقتنا في النظر إلى أنفسنا وإلى الآخرين، وطريقتنا في عرض أنفسنا وتقديم الآخرين أو عرضهم أو استحضارهم كما تصورتهم الثقافة التي تمارس التمثيل فهي متعددة ولكن أبرزها وأخطرها الكتابة والقول، أي الكتابة عن هذا الآخر بالنيابة عنه، والتكلم باسمه، وهو ما يعني مصادره تاريخ الآخر وثقافية وحقه الطبيعي في الحديث عن نفسه أو في تمثيل ذاته بذاته"(1).

أما ميشال فوكو فيعتبر أن التمثيل هو أساس العلوم والمعرفة الإنسانية ، حيث يقصد بالتمثيل تلك الاستراتيجية الأكثر شيوعا وانتشار والمساهمة في إنتاج المعرفة والخطاب، وهو يقوم على فكرة الاستغناء على الشيء بصورتها ونيابة الصورة الممثلة عن الشيء موضوع التمثيل...(2)

وبالعودة إلى مجال الدراسات الأدبية والنقدية فإن التمثيل يحيل إلى اللجوء إلى صور مختلفة قصد التعبير عن جملة من القضايا والتيمات، الأمر الذي يدعو المبدع إلى العودة إلى الخطابات والشخصيات والأزمنة والأمكنة بغية تجسيد ما أراد قوله، مما يجعل التمثيلات تتطلب وجود آلية أخرى وهي التخييل وذلك من أجل شحنها بدلالات يتعالق فيها الواقعي والمتخيل.

2-مفهوم التراث:

تختلف تعريفات التراث عند الدارسين والنقاد والباحثين لاسيما العرب منهم، وذلك حسب اختلاف توجهاتهم، والتراث عموما:" ليس مخلفات ثقافة الماضي بقدر ما هو كلية هذه الثقافات من حيث إنها الدين واللغة والأدب والعقل والفن والعادات وأعراف والتقاليد والقيم المألوفة التي يتشكل منها النسيج الواقعي للحياة ويلتصق بها"(3).

وهذا ما جعل التراث كمفهوم يختلف عن مفهوم الموروث الذي يرتبط في أغلب الأحيان بما هو مادي عيني، ما يجعل منه جزاء من التراث، أي أن رقعة ومساحة التراث تتسع لتشمل مفاهيم وعناصر ومجالات أخرى مجاورة لها كالموروث والتراث المادي وغير المادي، والتراث الشعبي، والتراث العالمي والإنساني، والتاريخ والمتخيل...

وللتراث مفهوميين واسعين" الأول يقصر على الناحية المادية ممثلة في الكتب والمكتبات والثاني يجعله في الناحية المعنوية ممثلة في القيم التي تؤثر في الحاضر، والسلوك الناتج عن تلك القيم"(4)

لهذا ستسعى مقاربتنا التطبيقية إلى توظيف المفهومين السابقين في الكشف عن صور التراث المختلفة في قصة "اللسان" لإبراهيم الكوني.

– تمثيلات التراث الصحراوي في قصة اللسان:

مما يجب ذكره في هذا المقام عن الروائي إبراهيم الكوني هو اعتماده الكبير على المخزون التراثي الخاص بمنطقة الطوارق الليبية، وتوظيفه لمختلف مظاهره، التاريخية والصوفية والأسطورية والأدبية، وهذا ما يظهر جليا في رواياته العديدة.

عكس ما هو موجود في قصصه حيث يظهر التراث خافتا، وقليلا، رغم ذلك يمكن للقارئ لقصصه أن يستشف بعض هذه المظاهر التراثية.

قصة "**اللسان**" من أبرز القصص التي كتبها إبراهيم الكوني، وحاول فيها أن يمزج بين السحري والواقعي، اختار لها الصحراء –كما هي عادته– لتكون فضاء مركزيا تتحرك الشخصيات وتدور فيه الأحداث، أما الزمان فهو مجهول قد تحيل عليه بعض القرائن التي سنناقشها في هذه المداخلة.

من بين الشخصيات التي تظهر في القصة حسب الأدوار والأهمية شخصيتين هما:

–النبيل: رجل من أعضاء مجلس الحكماء.

–العبد بوبو: خادم النبيل وعبده الذي ورثه عن أبيه.

أ–توظيف تراث البيئة المحلية:

يتعلق تراث البيئة المحلية بكل العناصر والصور الموجودة داخل المتن الإبداعي والتي لها ارتباط وثيق ببيئة المبدع، وبالعودة إلى قصة اللسان، تتراءى جملة من الصور التي تحيل على بيئة إبراهيم الكوني، وهي الصحراء.

والصحراء ليست مجرد فضاء جغرافي وفيزيقي مترامي الأطراف، بل هي عبارة عن حياة خاصة لها وجودها وتمضهراتها الاجتماعية، المتمثلة غالبا في حياة القبائل الصحراوية.

وتتواجد مظاهر الحياة الصحراوية التراثية المرتبطة بالإنسان التارقي في شقها الليبي، عبر قصة اللسان من خلال جملة من الصور والتمثيلات، لعل أبرزها:

-اللباس التارقي:

يتميز الإنسان الصحراوي بلباس خاص يميزه عن غيره من القبائل الأخرى، واللباس في الصحراء مختلف باختلاف المواقع والأماكن التي يعيش فيها، واللباس التارقي لباس خاص يرتبط بالقبائل التارقية التي تعيش في الصحراء الكبرى الموزعة بين الجزائر ومالي وليبيا، والنيجر...

ويتعلق هذا اللباس بهوية الإنسان التارقي وتراثه المادي والجمالي، " ولقد تفرد التوارق في أشياء كثيرة تتعلق بهويتهم ونظرتهم للحياة، وليس بالغريب لأن يطال هذا التفرد لباسهم،...فالزي التارقي استطاع أن يتفرد بألوانه وشكله وأسراره"(5)

وبالعودة إلى قصة إبراهيم الكوني نجد توظيف للباس التارقي عبر قوله على لسان القاص:" اعتاد النبيل أن يجالس عبده كلما عاد من مجلس الحكماء. أخذ الوباء قرينته منذ سنوات، فلم يجد في القبيلة مخلوقا يصلح للمجالسة، ويؤتمن على السر، مثل عبده بوبو الذي ورثه عن أبيه، يعود من المجلس الليلي منهمكا، ينزع ثيابه الزرقاء. يستبدلها بالثياب البيضاء، يأخذ مكانه بجوار الركيزة. يسند ظهره إلى العمود. يمد رجليه بموازة المدخل.يتحرر من اللثام"(6)

يحيل الاقتباس الماضي إلى لون اللباس التارقي الذي يتعلق بالزرقة وهو لون زاهي يضيف جمالية إلى الفرد الذي يرتديه، غير أن أكثر شيء يحيل على أن لباس النبيل في قصة الكوني جزء من بيئة الإنسان التارقي هو اللثام الذي هو عنصر أساسي في تكوين شخصيته وهويته، فلا يمكن في أي حال من الأحوال الاستغناء عن اللثام، فدوره مهم في الصحراء.

–القبيلة:

ترتبط القبيلة بالصحراء ارتباطا وجوديا، فهي ليست مجرد وجود فيزيقي للإنسان وعلاقته بالمكان جغرافيا، بل تتجاوز ذلك إلى الوجود الروحي والميتافيزيقي.

في نص اللسان تظهر جملة من القرائن التي تحيل على القبيلة التي ينتمي إليها النبيل أحد أبرز شخصيات هذه القصة.

وأبرز ما يحيل إلى القبيلة هي الخيمة باعتبارها السكن الأساسي لإنسان الصحراء، وهنا يطالعنا القاص بذكره لبعض أجزاء البيت التارقي عبر قوله:

"يأخذ مكانه بجوار الركيزة، يسند ظهره إلى العمود يمد رجليه بموازة المدخل"(7)

تعد كلمات: "الركيزة، والعمود، والمدخل" أجزاء من البيت التارقي متمثلا في الخيمة.

والخيمة عند الإنسان التارقي عبارة عن مكان جغرافي للسكن وفي الوقت نفسه دليل على الكرم واستقبال الضيوف. ولا يمكن لهذا المكان الاكتمال بعدم وجود الموقد والنار اللذين يحضر من خلالهما الشاي أو المشروبات التارقية.

يقول القاص:"يستدعي العبد، يأمره بإشعال النار لإعداد رحيق "تيفوشكان" أو "تبيريمت" أو الخليط من العشبتين. وما أن ينطلق لسان النار من الموقد، وتتبدد الظلمة، حتى يتبدل الحال، وينطلق لسان النبيل أيضا، كم انطلق لسان النار."(8)

يحضر الموقد كعلامة ثقافية عن طبيعة الحياة عند شعوب الصحراء لاسيما عند الجماعات التارقية –إذا جاز ذلك– وعن دوره في منح الإنسان التارقي وجودا أخر من خلال ما يوفره من سمر ورواية للقصص والأخبار والحكايات والأساطير والخرافات...

ومن العناصر التي تحيل على القبيلة وكيف أنها حافظت على وجودها بين القبائل الأخرى، واستمرارها بين كثبان الصحراء الوعرة، هو "مجلس الحكماء" الذي

يمثل الممارس الوحيد للسلطة وللحكم، والمسير لشؤون القبيلة المتكون عادة من أخيارها ونبلائها.

–توظيف مفردات أمازيغية

تتمظهر في قصة اللسان بعض المفردات التي ترجع إلى اللهجة الأمازيغية التارقية أبرزها:

أمغار: تطلق هذه اللفظة على الرجل المسن، العجوز، وتضاف إليها الثاء في حالة التأنيث، "أمغارث"، وقد تتوحد هذه اللفظة بين جل القبائل الأمازيغية شمالا ووسطا وجنوبا.

يقول القاص على لسان النبيل: " لمن تريدني أن أذيع سري؟ وأنا رجل وحيد؟ من تريدني أن أجالس وأنا بلا جليس؟ أم أنك نسيت وصية أمغار؟"(9)

تحيل كلمة امغار هنا إلى الأب الذي مات وورث عنه النبيل كل شيء بما فيه العبد (الخادم)"بوبو"، واللفظة هنا لا تحيل على الكبر في السن بل تحيل على التقدير والاحترام من قبل النبيل لأبيه خاصة وهو يخاطب خادمه.

وقد استعمل الكوني الهامش لشرح الكلمة باللغة العربية، حيث تقابلها كلمات: الجد، الأب، الزعيم، العجوز.

كما يوظف أيضا لفظة ثانية وهي تارقية أي خاصة بأمازيغ التوارق، حيث يقول النبيل دائما لخادمه: "أمغار الذي حذرني دائما من مخالطة **إيركاتيام**، أنت تعرف أنه لا يحذرني من الأدعياء الأشقياء لأنهم مخلوقات لا وفاء لها، ولكنه حذرني من مجالستهم لأنهم فخ منصوب."(10)

ويقدم الكوني شرحا لهذه الكلمة"إيركاتيام" بأنها تحيل إلى الدهماء والرعاع، الذين حذر أمغار ابنه من مخالطتهم فهم بمثابة الفخ المنصوب، لا يؤتمن لهم سر.

وقد ورد في اقتباس سابق استعمال الكوني لتسميات تارقية تطلق على أعشاب برية تنمو في الصحراء يتناولها الإنسان خاصة في الهقار والطاسيلي

وهي"تيفوشكان" و"تيبريمت"، ويلجأ الكوني دائما لتقديم شرح لهما في الهامش بأنهما أعشاب برية تشرب كالشاي.

كما يلمح في قصة اللسان استحضار إبراهيم الكوني لحيوانات الصحراء كما هي عادته دائما، فطالما... وجه خطابه الروائي عناية خاصة للحيوان الصحراوي، ولعل القارئ يلحظ الحضور المتميز لصنف معين من الحيوانات يأتي في مقدمتها "الودان" ثم "الغزلان" والجمال وأنواع أخرى...(11)

وقد ركز في قصته اللسان على حيوان الإبل باعتباره جزء مهم في تكملة مشهد الحياة التارقية في الصحراء، لهذا نجده يذكر أهميته في حياة النبيل، فيذكر هذه الحيوانات باسمائها التي يطلقها عليها أصحابها، فيقول عن أحد جمال النبيل التي أصابها وباء مجهول: "في البداية أصابت العلة الجمل العدّبس الذي كان يستعمله في قرع النوق.كان ضخما ضروسا، يرتفع على هامته سنام مهيب. ضمر هذا المارد، وبدأ يهزل حتى كاد يتلاشى.

لم يمض شهر على بداية الداء حتى وجده الرعاة ميتا في المراعي. "(11)

ثم يواصل القاص الحديث عن جمل النبيل الأبلق المهم بالنسبة إليه، حيث يصور العلاقة القوية التي تجمع بين الإنسان والحيوان، حيث يصف حال الجمل الأبلق بعد أن أصيب بالداء ذاته بقوله:"كان جملا نادرا. تلقاه هدية من زعيم قبائل "ايفوغاس" عندما نزل عليه ضيفا يحمل إليه رسالة من زعيمهم عندما رتبوا تحالفا لصد إحدى الغزوات. فقد رباه بيديه. وعاشره كما لم يعاشر امرأته الراحلة، وتبادلا وفاء لم يعرفه من المخلوقات المزيفة التي تسمي انفسها أصدقاء، وأنقذه من كمين رتبته له قبائل الأدغال، وأخرجه من متاهة بحر الرمال العظيم حيا عندا نفذ الماء، وباغته العجاج، وكاد يضيع في أرض المجهول."(12)

يظهر نوع من التقديس من قبل الكوني اتجاه الجمل الأبلق الذي جعل منه حيوانا خارقا يقترب من الأسطرة. وتكمن أسطرته لهذا الحيوان من خلال ذكره لحالة النبيل بعدما فقده للأبد.

فيقول: "بدأ المهري يهزل أيضا. عاف الكلأ، وأبى الخروج إلى المراعي، فعاف هو الطعام أيضا، وأبى الخروج حتى إلى مجلس العقلاء. رأى في عينيه الوديعتين حزنا وهما، فرأى بوبو في عيني سيده حزنا وهما أيضا.

مات المهري النبيل بعض أسابيع، فاحترق النبيل بالحمى، وغاب في غيبوبته ظنت القبيلة أنه لن يعود منها"(13)

يصور الكوني العلاقة الحميمية بين الإنسان التارقي وبين الحيوانات الأليفة التي تعيش معه في الصحراء، حيث تحضر تلك العلاقة السحرية بالمفهوم الأنتربولوجي للكلمة بينهما إلى حد التماهي.

ب- توظيف العادات والتقاليد والأعراف:

مما هو ملاحظ في قصة اللسان لإبراهيم الكوني قلة توظيف للعادات والتقاليد والأعراف في قبيلة النبيل إلا قيليلا،

ولعل التقليد الأهم الذي جاء عنده هو حديثه عن "مجلس الحكماء" الذي يرتبط بمهمة تسيير شؤون القبيلة، وتدبير أمورها، فهو متكون من شيخ يرأسه ومجموعة من النبلاء يمثلون الأعضاء فيه. وبالعودة إلى المتن القصصي "اللسان" نجد أن البطل "النبيل" قد تم اختياره عضوا خلفا لأبيه المتوفى، وقد اطلع في هذا المجلس على جملة من القضايا المهمة التي كانت تناقش فيه.

حيث كان ...في السنوات الأولى قد تحدث عن هموم الصحراء، وأحوال النساء، وأخبار العشاق، وأشعار الهجاء، ونوايا الأبكار، ولكن العقلاء ما لبثوا أن اختاروه عضوا في مجلسهم، خلفا لأبيه، فدأب على حضور المجمع الجليل، ورأى كيف تدبر المكائد بين الشيوخ، وعرف النوايا الخلفية ضد القبائل المجاورة ووقف على أساليب الزعيم في إبعاد الخلافات، وإنهاء الخصومات بين أعضاء المجلس، وأدرك أخيرا، أن أكثر العقلاء نفوذا وقدرا هم أكثرهم دهاء وقدرة على تدبير المؤامرات"(14)

يمكن استخلاص جملة من القضايا من هذا الاقتباس أبرزها:

– مركزية الحكم في هذه القبيلة. أي أن الزعيم، أو شيخ المجلس هو الذي بيده مقاليد السلطة وإدارة شوؤن القبيلة.

– يشترط في أعضاء مجلس الحكماء أن يكون من حكماء القوم لأن التسيير واتخاذ القرار يحتاج إلى الحكمة والعلم.

– المجلس لا يخلو من مظاهر الصراع بين أفراده المكونين له.

توظيف الجانب السحري:

اقتضت شروط القصة القصيرة أن لا يظهر توظيف الجانب السحري بمفهومه الأنتربولوجي، بشكل بارز كما هو في جنس الرواية مثلا.

فبالعودة إلى إبراهيم الكوني يلحظ المتتبع لكتاباته الإبداعية أن الجانب السحري والأسطوري لا يكاد يكون غائبا في كل أعماله، أما في قصة اللسان فيتمظهر هذا الجانب بشكل قليل، وقد تمثل هذا الظهور في حديثه عن اعتقادات الفرد التارقي السحرية والأسطورية الذي يعيد كل ما انغلق عليه إلى الغيب والمجهول.

ويظهر ذلك من خلال عرض الكوني لقصة الوباء الذي حير معظم أفرد القبيلة بما فيهم الحكماء، يقول الكوني على لسان قاصه: "يحسن بك أن تبحث عن الوباء في مكان أخر، لأنه ليس في أبدان الإبل، تحير النبيل، قال هل هو سحر؟"(14)

هناك اعتراف صريح من قبل النبيل بإمكانية السحر، ويرتبط هذا الاعتراف بقضية أنتربولوجية أساسية في بنية التكوين الاجتماعي والعقلي عن إنسان القبائل البدائية والمحدودة بتسليمها المطلق للغيب والقوى الخفية وغيرها من أشكال الماورائيات.

ويحضر الجانب السحري في القصة من خلال قول القاص: "بعد أن تماثل للشفاء أرسل في طلب الساحر، اختلى به في الخباء ليلة كاملة. خرج الساحر من هناك فلا يعلم أحد ماذا دار بينهما... بعد أيام زاره الساحر ليلا، واختلى به ليلة أخرى, لم يعرف أحد أيضا سر الساحر."(15)

يرتبط الجانب السحري بالمجهول، فهناك تسليم مطلق من أفرد القبيلة بأنه لا يمكن معرفة أسرار الساحر، وبأن التسليم بقدرته وامتلاكه لقوى خفية أمر ضروري وواجب.

تركيب:

بعدما هذه القراءة لأبرز تمثيلا التراث الصحراوي والتارقي في قصة اللسان لإبراهيم الكوني توصلنا إلى جملة من النتائج أبرزها:

– تحظر البيئة الصحراوية في القصة بمختلف مظاهرها، اللباس، القبيلة، الخيمة...

– يستعمل الكوني بعض المفردات التارقية التي لا تزال موجودة في معجمهم الخاص.

– يتراءى حيوان الإبل في قصة اللسان باعتباره رمزا من رموز الوجود الصحراوي والتارقي، حيث ينسج الكوني علاقة وطيدة وحميمية بين الإنسان التارقي وحيوان الإبل.

– يوظف الكوني مظهر من مظاهر الثقافة التارقية متمثلا في نمط الحكم وطريقة اتخاذ القرارات. الذي يمثله مجلس الحكماء.

– يظهر الجانب السحري في قصة اللسان من خلال بعض الملامح التي تحيل على طبيعة التفكير عند أفرد القبيلة.

ومما يجب ذكره في هذا المقام أن القصة القصيرة لا يمكنها إظهار القدر الكافي من صور وتمثيلات التراث الصحراوي، عكس الرواية.

الهوامش:

1- نادر كاظم: تمثيلات الأخر، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1،2004، ص19..

2- ينظر المرجع نفسه، ص 40

3-بوجمعة بوبعيو وأخرون: توظيف التراث في الشعر الجزائري الحديث، منشورات مخبر الأدب العام والمقارن، جامعة عنابة، ط1، 2007، ص.9

4-المرجع نفسه، ص.10

5-سعيدة درويش: ثقافة الرجل الأزرق، مجلة الواحات للبحوث والدراسات، جامعة غرداية، عدد15، 2011، ص.229

6-جاءت القصة كاملة في كتاب تحليل النصوص الأدبية لعبد الله إبراهيم وصالح هويدي، في القسم الثاني، ط1، ص135 ،

7-المصدر نفسة، ص.135

8-نفسه، ص.135

9-نفسه، ص .136

10-نفسه،ص .136

11- ينظر صالح ولعة وآخرون: المتخيل الصحراوي في الرواية العربية، منشورات مخبر الأدب العام والمقارن، جامعة عنابة، ط-2015، ص .189

12-نفسه،ص 136

13-نفسه، ص .137

14-نفسه، ص.135

15- نفسه، ص .138

16- نفسه، ص138.